

جوزيف بروز تيتو

1980 - 1892

لمع اسم جوزيف بروز تيتو في البداية بصفته قائد حركة الأنصار خلال الحرب العالمية الثانية. وما أن انتهت الحرب حتى تحوّل بالتدريج، كبطل تحرير، إلى الموقع الأساسي في اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف وفي الدولة الاشتراكية التي تشكلت من كرواتيا وصربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وسلوفينيا وكوسوفو، باسم جمهورية يوغوسلافيا الإتحادية. ومعروف أن حركة الأنصار في تلك المنطقة من أوروبا بقيادة تيتو كانت، إلى جانب حركة المقاومة اليونانية بقيادة الحزب الشيوعي اليوناني، جزءاً مكملًا للدور الذي لعبه الجيش الأحمر السوفياتي في تحرير تلك البلدان من الإحتلال النازي. وإذا كان تيتو قد حافظ على الإنتصار الذي تحقّق بقيادته، وحوّل يوغوسلافيا إلى دولة إشتراكية بقيادته أيضاً، فإن الإنتصار الذي حقّقه حركة المقاومة اليونانية قد خذله اتفاق يالطا الذي سلّم ستالين بموجبه اليونان إلى الحلفاء. وإذ سلّم الحزب الشيوعي اليوناني من دون اعتراض باتفاق يالطا فإن الشيوعي المقاوم ماركوس تابع الكفاح من أجل إحباط ذلك الإتفاق بمساعدة مباشرة من تيتو. واستمر يقاتل حتى عام 1948 محققاً الإنتصار تلو الإنتصار، إلى أن تم طرد يوغوسلافيا من أسرة الدول الإشتراكية بسبب الخلاف الذي نشب بين تيتو وستالين. فتوقف دعم يوغوسلافيا لماركوس، وتوقف ماركوس عن المقاومة ولجأ مع أنصاره إلى يوغوسلافيا وإلى البلدان المجاورة التي كانت قد بدأت تتأسس فيها جمهوريات ديمقراطية شعبية بدور مباشر من الإتحاد السوفياتي وبوجود كثيف للجيش الأحمر فيها.

كانت شخصية تيتو تكبر بفعل انتصاراته. وظل يمارس دوره كبطل تحرير وطني على امتداد الأعوام الأولى التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية محتفظاً بعلاقة عميقة مع الحزب الشيوعي السوفياتي ومع الدولة السوفياتية ومع ستالين بالذات. إلا أنه، من موقعه الجديد في قيادة الدولة اليوغوسلافية الجديدة المشكلة من اتحاد جمهوريات ذات أصول قومية مختلفة وذات تاريخ عريق، كان يتطلب منه السهر بعناية فائقة على تلك الوحدة في تعدد مكوناتها باحترام خصوصيات تلك المكونات، والبحث في كيفية إدارة الدولة، وفي

اختيار طريقه وطريقها إلى الإشتراكية. وكان يعتبر أن وجوده ووجود حزبه الشيوعي منذ ثلاثينات القرن داخل الأهمية الشيوعية (الكومنترن) لا يفرض عليه بالضرورة تقليد النموذج السوفياتي فيما يتصل بطريق يوغوسلافيا إلى الإشتراكية. الأمر الذي كان يعني، بالنسبة إليه، أنه إذا كان جزءاً عضواً من الأهمية الشيوعية وأميناً لقيادتها السوفياتية، فإن ذلك لا يفرض عليه بالضرورة أن يقبل بما يملى عليه من الشقيق الأكبر السوفياتي، مما لا يتفق مع أوضاع بلاده ومع الشروط التي كانت تتحكم بتطورها في ظل الإشتراكية. ولم يتأخر الخلاف بينه وبين ستالين في البروز. ورغم أن الكومنفورم الذي تأسس كمركز إعلامي للحركة الشيوعية بديلاً من الكومنترن الذي كان له طابع تنظيمي، فقد قرر ستالين باسم الكومنفورم أن يعاقب تيتو بالطرد من أسرة الدول الإشتراكية بسبب الخلاف الذي نشب بين الاثنين. لكن طرد تيتو وطرد يوغوسلافيا من أسرة الدول الإشتراكية لم يضعف دور ذلك الزعيم الصاعد إلى القمة من قلب المقاومة ومن انتصاره فيها. بل هو وجد نفسه سريعاً، باسم اشتراكيته التي لم يتخل عنها، في مكان آخر مع قوى أخرى كانت في طريقها إلى الصعود إلى مسرح الحياة السياسية على الصعيد العالمي. وهي القوى التي شكلت بالتدرج حركة عدم الإنحياز، التي كان تيتو من موقعه في قيادة يوغوسلافيا الإشتراكية أحد أبطالها التاريخيين مع كل من نهرو وشوان لاي وسوكارنو وعبد الناصر وآخرين من قادة بلدان آسيا وأفريقيا.

لكن تيتو كان يسير بسرعة داخل أسرة الدول الإشتراكية التي كانت قد تكونت بعد انتهاء الحرب بدور أساسي من الإتحاد السوفياتي، في الإتجاه الذي جعله بسرعة فائقة صاحب سطوة في بلده يوغوسلافيا على الطريقة الستالينية ذاتها التي سرعان ما صار ضحيتها. وكان يقف إلى جانبه في مواقع القرار رفيقه كارل المنظر الكبير للطريق اليوغوسلافي إلى الإشتراكية. وكان التسيير الذاتي أحد السمات الأساسية لذلك الطريق. وكان الغرض من التسيير الذاتي كما جرى شرحه التخفيف من دور الدولة المباشر في

عملية الإنتاج. إلا أن الأمور لم تسر كما كان يرغب تيتو في توحيد الحزب والمجتمع تحت قيادته بقوة انتصاراته وبقوة شخصيته وبالأيديولوجيا الشيوعية ذاتها التي جرى تطويعها وتنظيمها في المدرسة السوفياتية. ففي ذلك الوقت بالذات، أي في مطلع النصف الثاني من أربعينات القرن، خرج من صفوف القيادة في اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف متمرد يحمل اسم دجيلاس. كان الرجل عضواً في قيادة الحزب. ومن موقعه في القيادة اكتشف خلافاً فادحاً في إدارة الحزب والدولة. وكان يتوهم أنه باكتشاف ذلك الخلل يستطيع أن يهيئ الشروط لتصحيحه. اكتشف أن طبقة جديدة كانت تتشأ في الدولة الاشتراكية وفي المجتمع الاشتراكي في وطنه يوغوسلافيا بالذات شبيهة بالطبقة التي كانت قد تشكلت في الإتحاد السوفياتي وفي الحزب الشيوعي السوفياتي بدور أساسي من ستالين. وما أن طرح دجيلاس أفكاره تلك حتى ووجه بحملة داخل قيادة الحزب اليوغوسلافي، ظلت تكبر إلى أن قادته للخروج من الحزب والتشهير به، وللخروج من الحركة الشيوعية العالمية برمتها كمرتد ومارق. أخرج من موقعه في الحزب وبقيت التجربة الاشتراكية تشق طريقها في السياق ذاته المرسوم لها داخل يوغوسلافيا بقيادة تيتو بعد إخراج وإخراج يوغوسلافيا من أسرة الدول الاشتراكية، وداخل الدول الاشتراكية الأخرى التي كانت قد بدأت تتكون بدور مباشر من الإتحاد السوفياتي في أوروبا الشرقية في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

لم تهتز شخصية تيتو لا بأفكار دجيلاس النقدية، ولا بالقرار الذي اتخذته الكومنفرم ضده. فهو كان قد أصبح زعيماً تاريخياً ليوغوسلافيا وللشيوعيين اليوغوسلاف وللشعب اليوغوسلافي، مستنداً إلى تاريخ حافل بالأحداث التي رافقه منذ شبابه الباكر.

ولد جوزيف بروز في عام 1892 في قرية كرمروفيتش (زاغوريا الكرواتية)، لأب كان فلاحاً فقيراً. أنهى دراسته الابتدائية في القرية في عام 1905. وأنهى دراسته المتوسطة في عام 1907. انتقل بعد ذلك إلى العمل في أحد المطاعم. ثم انتقل بعد فترة من الزمن إلى العمل في مهنة التعدين بعد أن تعلم أصولها. وقادته علاقاته بالعمال الاشتراكيين في

المعمل الذي كان يمارس فيه عمله إلى التوجه نحو الإشتراكية. وفي مدينة زغرب انتسب إلى الحزب الإشتراكي الديمقراطي الكرواتي. وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره. وبدأ يشارك في الإضرابات والمظاهرات العمالية في كل الأمكنة التي كان ينتقل إليها ليمارس العمل في مهنته الجديدة. التحق في خريف عام 1913 بالخدمة العسكرية. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914 شارك فيها بصفته مجنداً. اعتقل أكثر من مرة. وجرح أكثر من مرة، أولاً في صربيا خلال الحرب، ثم فيما بعد في روسيا كأسير حرب. وظل ينتقل في روسيا من مكان إلى آخر. وفي إحدى تنقلاته في المدن الروسية التقى بالثوار الروس وحضر اجتماعاتهم التي كانوا يقرأون فيها مقالات للينين ومقتطفات من كتبه. كان ذلك في عام 1917، أي في ذلك العام بالذات الذي قامت فيه ثورة شباط ضد القيصرية. كان جوزيف بروز ينتقل بين المدن الروسية للعمل. وكانت أفكاره الإشتراكية تتبلور في الإتجاه الأكثر جذرية، الإتجاه الذي كان يتمثل بالنسبة إليه في كتابات لينين التي أدمن على قراءتها. وكان يشارك في المظاهرات العمالية. وكانت تقوده نشاطاته السياسية إلى الإعتقال مرات عديدة. وكان يفرج عنه أحياناً. وكان يهرب من السجن أحياناً. وظل على ذلك المنوال إلى أن وصلته وهو في مدينة أوسك أنباء انتصار البلاشفة في الإستيلاء على السلطة. فتقدم بطلب الإنتساب إلى الحزب البولشفي والحصول على الجنسية السوفياتية. وبدأ يمارس نشاطه بحرية وبنقة بالمستقبل. إذ صار شيوعياً بالمعنى الكامل للكلمة وبالمهمات التي التزم بها باسم شيوعيته. وزوج بين أمميته الشيوعية وبين وطنيته اليوغوسلافية. فكان في الآن ذاته عضواً في الحزب البولشفي وعضواً في شعبة يوغوسلافيا داخل الحزب البولشفي. ولم يترك ميداناً من ميادين العمل السياسي إلا وشارك فيه بصفته الشيوعية، لا سيما بعد انتصار ثورة أوكتوبر ودفاعاً عنها ضد قوى الثورة المضادة. وظل يمارس نشاطه الأممي على امتداد الفترة بين عام 1917 وعام 1920. إذ غادر روسيا في ذلك العام مع مجموعة من أسرى الحرب اليوغوسلاف إلى وطنه بعد أن أمضى ستة أعوام في روسيا بصفته أسير حرب وشيوعياً أممياً. عاد إلى وطنه مسلحاً بأفكاره الشيوعية

الجديدة وبتجاربه النضالية الحافلة بالأحداث. عاد إلى زغرب عاصمة وطنه كرواتيا. وتابع نضاله السياسي في الحركة العمالية. شارك في الإضرابات وفي المظاهرات. وبدأت تبرز الملامح الأولى للقائد في طبيعة حركته. وقادته نشاطاته في وسط العمال إلى أن أصبح في عام 1924 عضواً في لجنة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي في محافظة بيلوفار. وظل ينتقل في عمله المهني وفي نضالاته وفي مواقفه الحزبية والنقابية خلال الأعوام اللاحقة إلى أن أصبح في عام 1928 في موقع سكرتير الحزب في كرواتيا، بالنظر للأدوار التي اضطلع بها في تلك النضالات. وكان ينتقل من سجن إلى آخر. وكانت تزيده ملاحقة السلطات له قوة وشجاعة وإصراراً على متابعة نضاله. وكانت المرحلة التي قضاها في السجن (1931-1933) بالغة الأهمية في تكوينه الفكري. فقد تعرف في السجن إلى عدد من الشيوعيين، ونظم معهم سلسلة نضالات كانت ترمي إلى تحسين شروط حياتهم في السجن. وأسس معهم جامعة شيوعية وضعوا لها برنامجاً لدراسة الماركسية. ويقول جوزيف بروز في الحديث عن تلك الجامعة: "... كنا نمارس أعمال الترجمة أيضاً داخل السجن. فكل من كان يعرف اللغة الألمانية كان يكلف بترجمة عشرات الصفحات، لأنه لم يكن يتوفر لنا إلا نسخة واحدة عن كل كتاب. وقد قمت بترجمة الكثير عن الألمانية. كما فعل ذلك الآخرون الذين كانوا يعرفون هذه اللغة. وكان هذا العمل يدخل ضمن التدريب الذاتي إن صح القول".

خرج جوزيف بروز من السجن أكثر قوة وصلابة وأكثر ثقة بنفسه. وقادته كفاءاته السياسية والفكرية ونفاؤله في اقتحام المهام الصعبة إلى أن يصبح بعد انتقال الحزب الشيوعي اليوغوسلافي للعمل في فيينا عضواً في المكتب السياسي في الحزب في عام 1934. واتخذ له في ذلك التاريخ اسماً سرياً هوثيتو، الاسم الذي ظل يرافقه إلى آخر حياته. وفي عام 1935 قررت قيادة الحزب اليوغوسلافي إرساله إلى موسكو للعمل في اللجنة التنفيذية للكومنترن. واجهت تيتو في تلك الفترة صعوبات كبيرة داخل حزبه تمثلت

بالإنقسامات وبالصراعات داخل قيادة الحزب. فكان ينتقل بين موسكو وبلغراد وزغرب وفيينا وباريس في مهمة أساسية سعياً منه للحفاظ على الحزب وعلى دوره في تلك المرحلة عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية التي كانت بوادرها ظاهرة للعيان. وكان حكام يوغوسلافيا في ذلك التاريخ على صلة بهتلر. الأمر الذي جعل نشاط الشيوعيين أكثر صعوبة من ذي قبل. استتفر تيتو في تلك الفترة كل طاقاته ليحافظ على الحزب. ولم تنسه انشغالاته في شؤون الحزب العمل على إرسال متطوعين إلى أسبانيا للوقوف إلى جانب الجمهوريين ضد الأخطار التي كانت تواجههم من داخل البلاد وخارجها، فرانكو من الداخل وهتلر من الخارج. وكان الحزب اليوغوسلافي يواجه بسبب الأزمة التي كان يعاني منها بفعل الإنقسامات والصراعات في قيادته خطر القرار بحله من قبل الكومنترن. إلا أن تيتو عمل بكل طاقاته متنقلاً بين موسكو وبلغراد وزغرب بين أعوام 1938 و 1940، لتجنب خراب الحزب في تلك المرحلة الحبلية بالأحداث. وتمكن في عام 1940 من عقد المؤتمر الخامس للحزب في شكل سري في مدينة زغرب. وهو المؤتمر الذي انتخب فيه تيتو أميناً عاماً للحزب. ذهب بعد ذلك إلى موسكو ليثبت عضوية حزبه في الكومنترن. ونجح في مهمته بمساعدة كل من جورج ديمتروف وويلهام بيك العضوين البارزين في قيادة الكومنترن. ذهب تيتو إلى الكومنترن مسلحاً بالقرارات المهمة التي اتخذها الحزب في المؤتمر الخامس والتي اتسمت بالوضوح في اتجاه النضال لانتصار الثورة الاشتراكية في يوغوسلافيا. وهكذا بدأ تيتو مرحلة جديدة متقدمة في سيرته النضالية في اتجاه مجده القادم. وكانت المهمة الأولى بالنسبة إليه في تلك الفترة التي كانت الحرب العالمية فيها على قاب قوسين أو أدنى هي إعداد الحزب لمواجهة كل الاحتمالات. وظل حريصاً على علاقته بالكومنترن. فذهب إلى موسكو في الفترة التي تم فيها توقيع المعاهدة بين ستالين وهتلر لمعرفة جوهر الخطة السوفياتية في مواجهة أخطار الحرب التي كانت قد بدأت باجتياح الجيش الألماني بولونيا. ثم عاد إلى البلاد قبل أن تجتاح قوات هتلر أراضي الإتحاد السوفياتي وتتوغل فيها، لينظم حركة المقاومة في مواجهة تلك القوات لدى دخولها الأراضي اليوغوسلافية. وكان من أهم

ما حرص تيتو عليه في المؤتمر الخامس للحزب التأكيد على العلاقة الثابتة بين المكونات القومية ليوغوسلافيا كدولة فدرالية تجتمع فيها شعوب من قوميات مختلفة. وهي علاقة تقوم على الإحترام المتبادل بين تلك المكونات القومية، وعلى التكافؤ والمساواة فيما بينها من دون أي تمييز بين الكبير منها والصغير مساحة جغرافية وعدد سكان.

قاد تيتو بكفاءة عالية جيش تحرير يوغوسلافيا خلال الحرب بين عام 1941 وعام 1945 في مواجهة الجيوش الألمانية الغازية، وفي مواجهة حكام يوغوسلافيا الذين استسلموا للغزاة. واستطاع بالتعاون مع الجيش السوفياتي أن يستكمل تحرير كامل الأراضي اليوغوسلافية من فلول الجيش الألماني التي كانت تتراجع أمام بطولات المقاومين الشجعان.

لكن صعوبة كبيرة واجهت تيتو في المرحلة الأخيرة من الحرب من قبل الحلفاء الذين كانوا يسعون إلى إعادة الحكومة السابقة إلى السلطة في البلاد. شارك في مفاوضات صعبة مع قادة الحلفاء. وكان همه هو أن يعترف العالم بدولة يوغوسلافيا الجديدة بقيادته. واستعان بستالين في مفاوضاته الصعبة مع الحلفاء. وتكلفت مساعيه بالنجاح في القرار الذي صدر في اجتماع يالطا بين الحلفاء القاضي بالإعتراف بدولة يوغوسلافيا الجديدة بقيادة تيتو زعيم حركة المقاومة التي واجهت ببطولة القوات الألمانية الغازية وانتصرت عليها.

خرج تيتو من الحرب بطلاً قومياً لكامل شعوب يوغوسلافيا وقومياتها. وانتخب في عام 1945 رئيساً للجبهة الشعبية اليوغوسلافية في مؤتمرها الأول. وكانت تلك الجبهة قد تأسست قبيل الحرب وتحولت في الحرب إلى منظمة كفاحية ضمت في صفوفها بالتدريج الملايين من اليوغوسلافيين في ظل الإنتصارات التي كان يحققها المقاومون خلال الحرب. وفي عام 1946 صدر أول دستور لجمهورية يوغوسلافيا الإتحادية. وكلف تيتو بموجب الدستور الجديد لتشكيل الحكومة. وعين في الآن ذاته قائداً أعلى للقوات المسلحة. وهكذا

بدأت مرحلة جديدة غير مسبوقة في تاريخ يوغوسلافيا في ظل النظام الإشتراكي. وقد حرص تيتو منذ البداية أن يعطي لاشتراكيته نمطاً خاصاً يحترم فيه الشروط الخاصة ليوغوسلافيا. وكان ذلك النمط يختلف في بعض تفاصيله عن النمط السوفياتي الذي حرص ستالين على تعميمه على الجمهوريات الديمقراطية الشعبية في أوروبا الشرقية التي تحررت بدور مباشر من الجيش الأحمر السوفياتي خلال الحرب. وحرص تيتو برغم تمايزه ذلك على الإستمرار في علاقة أممية راسخة وعميقة مع الإتحاد السوفياتي. وكرس تلك العلاقة في مقال له نشر في مجلة كومونيست السوفياتي في عام 1945. وحرص أن ينشر ذلك المقال في الوقت الذي كان يعقد مع ستالين في العام ذاته معاهدة صداقة وتعاون بين بلديهما. وشارك في عام 1947 في تأسيس المركز الإعلامي للأحزاب الشيوعية (الكومنفورم) الذي حل محل الكومنترن، الذي كان قد جرى حله في عام 1943. إلا أن كل تلك المحاولات التي قام بها تيتو لتعزيز موقعه في العلاقة الأممية مع الإتحاد السوفياتي ومع ستالين بالذات كانت تقابلها المتاعب في العلاقة مع ستالين. ذلك أن ستالين الذي جعلته الإنتصارات الباهرة للجيش الأحمر في الحرب شخصية وطنية كبيرة في الإتحاد السوفياتي وشخصية كبيرة على الصعيد العالمي، كان قد بدأ يتحوّل إلى رمز للشيوعية في مستوى الإله. وقادته انتصاراته وقاده موقعه على رأس كتلة من الدول التي شكلت لأول مرة في التاريخ منظومة إشتراكية، إلى أن يمارس دور الأب لكل الحركة الشيوعية، دولاً وأحزاباً في شتى أرجاء العالم. حاول تيتو بكل طاقاته أن يحافظ على البقاء من موقعه الأممي أميناً لعلاقة عميقة مع الإتحاد السوفياتي، وأن يحافظ في الآن ذاته على استقلاله داخل أسرة الدول الإشتراكية. لكنه لم يفلح في مسعاه. وواجهته حملة شرسة من ستالين ومن قادة الدول الإشتراكية التي كانت قد تأسست بعد الحرب بدور أساسي ومباشر من الإتحاد السوفياتي. كما واجهته حملة شرسة من قيادات الأحزاب الشيوعية المشاركة في الكومنفورم. وكانت التهمة الأساسية التي وجهت إلى تيتو تتمحور حول ما اعتبر موقفاً قومياً يتعارض مع الطابع الأممي للإشتراكية. وجوهر الإتهام يقوم على أن تيتو أراد أن

يحتفظ بحقه في اختيار طريق بلاده إلى الاشتراكية بخصوصياتها القومية وبسوى ذلك من أمور تتعلق في كيفية بناء القاعدة المادية للاشتراكية وفق برنامج يوغوسلافي يوفق فيه الشيوعيون اليوغوسلاف بين انتمائهم الأممي وبين احترام خصوصيات بلدهم في توجيههم لبناء نظامهم الاشتراكي. رفض تيتو الاتهامات الموجهة إليه وإلى حزبه، ونال من المؤتمر العام للحزب الذي عقده في ذلك العام بالذات ثقة الحزب في موقفه. لكن الكومنفورم ظل مصراً على الإتهام الموجه إلى تيتو وإلى حزبه واتخذ قراراً يقضي بإخراجه من أسرة الدول الاشتراكية ومن الحركة الشيوعية العالمية. لكن تيتو لم يتراجع أمام الضغوط وأمام الإتهامات وأمام الحملة التي أعقبت القرار بإخراجه وإخراج حزبه والدولة الاشتراكية اليوغوسلافية من الكومنفورم. بل هو تابع نهجه ذاته مستنداً إلى التأييد الذي لقيه من لحزبه ولشعبه. وظل يؤكد أنه إنما يمارس بناء الاشتراكية في بلده على قاعدة مرجعيته الماركسية. وقال في خطاب له في عام 1948 مدافعاً عن موقفه: "ما دام ثمة بلدان رأسمالية إلى جانب البلدان الاشتراكية، وما دام ثمة شعوب مضطهدة قومياً، وما دام ثمة استعباد استعماري لا يرحم، فإنه ينبغي على العلاقات بين البلدان التي تتبنى الاشتراكية أن تكون منظمة بشكل يمكن معه أن تشجع جميع الشعوب ولا سيما الشعوب الصغيرة في نضالها من أجل تحريرها الوطني والاجتماعي ومن أجل التكافؤ. إن على هذه العلاقات أن تكون مثلاً، أو بالأحرى، حافزاً على المضي في تطوير الاشتراكية في العالم، لا أن تكون كابحاً لهذا التطور.

بعد إخراج يوغوسلافيا من الكومنفورم بفترة زمنية قصيرة، أي في شهر كانون الثاني من عام 1949، دافع تيتو بمزيد من الجزم عن موقفه الأممي بمرجعته الماركسية، قائلاً لجميع رفاقه بأن التخلي عن مبدأ النضال الثوري الذاتي يعني الموافقة على أسلوب ليس ماركسياً ولا أممياً. وهو أمر قد يلحق بالحركة العمالية الدولية في المستقبل أضراراً جسيمة. لقد رفض تيتو تهمة الكومنفورم، أي تهمة ستالين، ونفى وجود أية نزعة معادية للسوفييات في

يوغوسلافيا. ودعا الشيوعيين إلى دراسة جوهر العلوم الماركسية على نحو أفضل من أجل التطبيق السليم لهذه العلوم قائلًا: لكي نخوض بنجاح النضال اليومي من أجل بناء الاشتراكية علينا أن نخوض النضال في الآن ذاته للحفاظ على صفاء تلك العلوم التي وضعها معلمونا الكبار... إنني لا أود هنا أن أنتقد الإتحاد السوفياتي أو الحزب الشيوعي السوفياتي، إن التجربة هي التي ستبين من هو على حق: هم أم نحن؟ إننا لن نتبارى بالعبارات الجوفاء: من هو أفضل ومن الذي قيمته أكبر؟ لكننا سنتمكن بالأعمال الملموسة التي ننجزها اليوم في بلدنا لكي نقنع بها جميع القوى التقدمية في العالم التي بدأت تنظر اليوم إلى يوغوسلافيا نظرة مختلفة تماماً".

لم يكن تيتو الضحية الوحيدة لخطرسة ستالين. فالمعروف أن ستالين قد مارس الموقف ذاته الذي اتخذ بحق تيتو في مطالع خمسينات القرن، قبل أن يغادر الحياة، في سلسلة مواقف وإجراءات طالت عدداً من قادة دول أوروبا الشرقية قضت بإعدام بعضهم بتهمة خيانة الاشتراكية. أما تيتو فقد ظل صامداً مستقلاً في نهجه في بناء الاشتراكية. وكان من أبرز ما حرص عليه تمثيل جميع القوميات في القيادة العليا للحزب وللدولة. وأسس نمطاً جديداً في الإنتاج صار يعرف بالتسيير الذاتي. ويحدد تيتو في تقريره أمام المؤتمر الثامن لاتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف المهمة الأساسية في موضوع العلاقات القومية داخل الإتحاد والبرنامج الإقتصادي. يقول تيتو: "إن اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف سيولي عناية كبيرة بالقضايا النوعية الخاصة بالمجموعات العرقية القومية وبناء مواقف أممية مبدئية وحازمة من تلك القضايا وبالاحترام التام لتلك المواقف وبتنفيذها. وهو أمر طبيعي. فهو لا يتعلق فقط بقضايا داخلية لبلادنا، هي في غاية الأهمية والحساسية، وإنما يتعلق أيضاً بعلاقاتنا الدولية. فمواقفنا المبدئية من مسألة المجموعات القومية في بلادنا قد عرضت بوضوح وشمولية في برنامج اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف. وكانت ذات أهمية كبيرة للمشاورات التي دارت في منظمات اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف، لا سيما الإجتماع الإستشاري الذي

نظمتها اللجنة التنفيذية للجنة المركزية للاتحاد في شهر آذار من عام 1959. وهو الاجتماع الذي أصدرت اللجنة التنفيذية على أساسه قرارات حول هذه المسألة.... ونقطة الإنطلاق في سياستنا بالنسبة للمجموعات القومية هي المعاملة الموحدة والمكانة الاجتماعية المتساوية لجميع الشغيلة بصرف النظر عن انتمائهم القومي وبصرف النظر عما إذا كانوا من صفوف قومية أكبر أم أصغر. إنها إذن سياسة الإلغاء التام لكل ظل من ظلال التمييز القومي. وبعبارة أخرى، إن كافة الحقوق القومية مكفولة لأبناء المجموعات القومية في مجتمعنا. ليس هذا فحسب، وإنما تتاح أمامهم أيضاً فرص واقعية من خلال تطور نظام التسيير الذاتي لكي يقوموا بمفردهم وبالتعاون مع القوميات الأخرى بإحقيق هذه الحقوق مباشرة. لكننا ما نزال نصادف على هذا الطريق مصاعب بذلك القدر الذي يواجهه فيه نظام التسيير الذاتي الاجتماعي ووظائفه والمشاكل الموضوعية ونقاط الضعف الذاتية. وبسبب ذلك كله فإن اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف يرى أنه ينبغي وفقاً للمتطلبات الأساسية للديمقراطية الحقة، المضي في الإلحاح على المواقف التالية بالنسبة لمشكلة المجموعات القومية: أولاً، الإحقيق التام لحقوق جميع القوميات من خلال توفير الظروف للتحقيق الفعلي لمصالحها الخاصة في التطور الإقتصادي والثقافي، وكذلك في تطوير المنظومات العاملة والمنظومات السياسية- الاجتماعية التي تعيش فيها. ثانياً، تطوير ورعاية وتعاون شامل قائم على أساس علاقات الصداقة وحسن الجوار مع البلدان المجاورة لنا المأهولة بخليط من السكان. إذ بوسع هذا التعاون أن يسهم في أن لا تكون حدود الدولة جداراً يفصل بين المجموعة القومية وشجرتها، بل يجعل روابطها مع أمها الأصل أكثر حرية وشمولاً. الأمر الذي يحولها من عامل للشقاق كان قائماً فيما مضى إلى عامل للتقارب والتعاون بين الشعوب والبلدان. وبصدد المضي قدماً في تطبيق سياستنا هذه، فإننا مطالبون بأن نولي اهتماماً خاصاً لتطوير القدرة الإقتصادية لتلك المناطق التي تقطنها قومياتنا ذات التطور الإقتصادي الأضعف. ذلك أن تطور قوى الإنتاج في إقليمي الحكم الذاتي وبقية الأجزاء التي تقطنها مجموعات عرقية أخرى هو أهم شرط من شروط تقدمها الشامل. كما أن

قضايا التطور الثقافي والتربوي لأبناء جميع القوميات جديرة بالعناية الكبيرة من الأجهزة المعنية للمنظومة الإجتماعية".

غير أن تيتو الذي أصبح الزعيم الأوحده والمطلق للبلاد قد تحوّل، أسوة بالآخرين من أقرانه في النظام الإشتراكي وعلى طريقة ستالين، إلى ما يشبه الإله. ومارس من موقعه ذلك قيادة البلاد في ظل الحزب الواحد والزعيم الواحد. وصار شخصية عالمية. وكان قد ساعده في نجوميته تلك القرار الشجاع الذي اتخذه خروتشوف بعد وفاة ستالين وانتخابه أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفياتي، القرار الذي أعاد العلاقة مع تيتو ومع اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف، وأعاد الإعتبار إلى الزعماء الشيوعيين الذين أعدموا بقرار من ستالين في دول أوروبا الشرقية.

لقد أتيج لي أن أزور يوغوسلافيا ثلاث مرات بدعوة من اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف. الزيارة الأولى كانت في عام 1978 لحضور مؤتمر الحزب. وقد أجريت مع أحد أعضاء المكتب السياسي، وكان جنرالاً في الجيش، نقاشاً واسعاً حول التجربة اليوغوسلافية كنت فيه مستمعاً من دون إبداء أي رأي. أما الزيارتان الثانية فاجاءتا في عام 1981 و 1982 على التوالي. الأولى كانت في إطار وفد حزبي برئاسة الأمين العام للحزب جورج حاوي، وشارك فيه ألبير فرحات. أما الزيارة الثانية في عام 1982 في إطار وفد حزبي كنت رئيسه، وشارك فيه طوني فرنسيس وعلي منعم. وكانت لنا في الزيارتين لقاءات مع المسؤول الأول في اتحاد الشيوعيين، الذي كان يتبدل في كل عام ليحل مكانه في المسؤولية السكرتير الأول في الحزب في إحدى الجمهوريات التي كان يتشكل منها الإتحاد اليوغوسلافي. وكانت لنا نقاشات واسعة في الزيارتين حول التجربة اليوغوسلافية وحول الوضع داخل المنظومة الإشتراكية وحول الوضع الدولي، وحول الوضع في لبنان وفي منطقة الشرق الأوسط. وكان لبنان في تلك الفترة غارقاً في الحرب الأهلية. ومن طريف

ما سمعناه في الزيارتين انتقادات لنا في كيف أننا نحن اللبنانيين، والشيعيين من ضمنهم، قد أدخلنا بلدنا الجميل في تلك الحرب العبثية المدمرة.

ولم يكد ينتهي عقد الثمانينات حتى بدأت يوغوسلافيا تواجه صراعاً داخلياً بين الجمهوريات المشكل منها الإتحاد، سارعت القوى الخارجية إلى الدخول فيه وفي تأجيجه. وتحولت تلك الصراعات إلى نوع من التطهير العرقي الذي جاء في الإتجاه النقيض الذي قامت عليه دولة يوغوسلافيا الإشتراكية الإتحادية بقيادة تيتو. وطرحت في ذلك التاريخ أسئلة كبيرة حول ما كان يجري في ذلك البلد، لا سيما بعد أن تدخل الحلف الأطلسي بقوته العسكرية الغاشمة في الصراع الذي كان دائراً. وكان الهدف من ذلك التدخل العسكري يرمي إلى إسقاط النظام الإشتراكي الذي كان البقية الباقية من رموزه يتمثل بميلوسوفيش. وانتهت التجربة التي أرساها تيتو على امتداد حياته إلى تقسيم ذلك البلد، وإلى التحكم الإقليمي في مسار جمهورياته القديمة سياسياً واقتصادياً وفي كل المجالات. وانتهى بذلك الحلم الذي أسس له تيتو. وانتهت التجربة الإشتراكية في يوغوسلافيا مع انهيار التجربة الإشتراكية في الإتحاد السوفياتي وفي سائر البلدان التي سكلت طريق الإشتراكية وفق النموذج السوفياتي المعمم.